الفصل

1 تعريف بالأشخاص المزعجين
(ذوي الشخصية [المضطربة] «السايكوباتية»)

ربما كنت تعرف كثيراً عن الأشخاص المزعجين، فلِمَ تكلِّف نفسك عناء القراءة عنهم؟!! مهلاً، سيساعدك هذا الكتاب على فهم الأسباب التي جعلت هؤلاء الأشخاص مزعجين جداً.

كان أول عهدي بهذا الحقل الممتع الذي يُعنى بأمراض الشخصيّة (أو ما يجعل الناس مزعجين) يوم كنت طالباً في كلية الطب. كان ذلك منذ فترة بعيدة لا أستطيع أن أذكرها دون أن يمسّني شيء من الارتعاش. حينها كان الأستاذ المحاضر في مادة الطب النفسي طبيب نفسي باحث، طويل القامة نحيلها، عبوساً يرتدي بذلة داكنة، يبدو فيها كالحانوتي الذي يجهِّز الموتى.

في بداية المحاضرة التي كانت تحمل عنوان «اضطرابات الشخصية» Personality Disorders لفت الأستاذ انتباهنا إلى ضرورة مقاومة إغراء البدء بتشخيص جميع أنواع الأمراض

العقلية في أسرتنا وبين الرفاق في صفنا. وكان محقاً طبعاً، فقد أمضينا الساعة التالية نتلفت حولنا في قاعة المحاضرة متفحصين وجوه بعضنا بعضاً تفحص الطبيب النفسي. ومرَّت سنوات كثيرة فقدت أثناءها روح المرح، وأصبحت طبيباً نفسياً أرتدي بذلات داكنة. وكثيراً ما كان يسألني الناس عن مهنة دفن الموتى. وعندما أرى مريضاً جديداً الآن يتبادر إلى ذهني سؤال: «كيف هي شخصية هذا المريض»؟ فهذا أول مفتاح لمعرفة شخصية المريض وهل هو ذو شخصية مزعجة أو منزعجة، مؤلمة أو متألِّمة. فذاك السؤال يحتل مرتبة أولى قبل أي اعتبار لمعرفة وضع المريض العاطفي، أو البيولوجي، أو لماذا يكره أمه. فشخصية الواحد منا تقحمه في كثير من الأحيان في متاعب جمة، باستطاعتها أن توتر علاقاتنا، وتجعلنا نعيش في حالة من العذاب يصعب تخيُّلها، أو حتى بإمكانها منعنا من اكتساب فهم ومعرفة الحياة وأمورها مثل (النضج، الزواج، العقارات، العلاقات العائلية، السياسة، الاقتصاد...) إلاَّ أن تلك الشخصية في ذواتنا تستطيع أيضاً إخراجنا من المتاعب، هذا كنا نتمتع بأداء فردي متميز.

ومن زاوية أخرى، وعندما عقدت حلقة بحث مؤخراً حول كيفية بقاء الفرد عاقلاً في عالم تجارة أو أعمال اليوم المجنون، اكتشفت أن الحديث عن تصنيف الشخصيات كان الموضوع الأهم الذي شدَّ اهتمام المجموعة (الحضور)، بعد أن كانوا يظنون أني سأعلِّمهم طقوس الدفن أو ما شابه، إلاَّ أنهم فجأة

بدأوا بمسح قاعة الدرس بأنظارهم، وبدت على وجوههم إمارات الفهم والإرباك، مما يعني أن الاهتمام والنزوع إلى دراسة شخصية الفرد ليست مثار اهتمام الأطباء النفسيين فقط.

وبالعودة إلى الكتاب، فقد تألف من ثلاثة أقسام. القسم الأول منه يبحث في أنماط شخصيات مختلفة لمجموعة أشخاص. النقطة الأساسية في هذا القسم هي أن الناس من التعقيد لدرجة يستحيل معها إيجاد طريقة واحدة لفحصهم. لذا يعرض المؤلف لعشرة أمور أو مسائل يجب التفكير فيها عند محاولة تصنيف أية شخصية. وإذا كان في هذا الكلام ما يثير الارتباك فإن المضي في قراءة هذا القسم سيحل الإشكال.

القسم الثاني هو حول نمطية الإنسان الشخصية. فهناك فئة من الناس تمضي في هذه الحياة مشيعة حولها الألم بين الناس، وهناك فئة تمضي في هذه الحياة بصمت، دون التفوُّه بكلمة احتجاج حول عذاباتهم. وستجد هذين النمطين في هذا القسم. فهو يناقش كيف تؤدي السلوكية الشخصية إلى جعل الأشخاص، دون أي خطأ يرتكبونه، أشخاصاً ممثلين. إذا وجدت وصفاً مطابقاً لشخصيتك، في هذا القسم، فلا تتحامل على نفسك، لأنه ليس منا من يمتلك شخصية سوية مثالية على الإطلاق.

القسم الثالث: هذا القسم يتناول الملمات الإنسانية. فكلٌّ منّا يواجه بعض الملمات في حياته فيرى الأشياء المؤلمة التي

تثقل صدورنا، من مثل فقد عزيز، أو مرض عقلي، أو فشل، لكن تبقى طريقة مواجهة هذه الملمات رهن بشخصية الفرد، فالأشخاص الأقوياء، والأشخاص ذوي المعنويات العالية هم دائماً قادرون على مواجهة تلك الملمات.

وقبل الدخول في تفاصيل الكتاب لا بدّ من التركيز على نقطتين هامتين، وذلك كي لا تسبب قراءة هذا الكتاب الإزعاج للقارئ، إذ أنه من المفترض وعند انتهائه من القراءة أن يكون القارئ قد تعرَّف على سلوكيات الأشخاص المزعجين فقط، دون أن يعني هذا الانضمام إليهم. لذا يجب الانتباه إلى نقطتين:

النقطة الأولى هي أن «الحالات» المدرجة في الكتاب تصف شخصيات من نسج خيال المؤلف، يصوِّرهم للتركيز على بعض النقاط الهامة في أي شخصية، بالمقابل، إذا لم يجد القارئ نفسه في أيٍّ من الحالات المدرجة، فبالتأكيد هو يغالط نفسه، أو ربما هو مثالي إلى درجة عالية.

النقطة الثانية هي أن المؤلف ليس دبلوماسياً على الإطلاق، إذ أنه يرفض الإشارة مثلاً إلى (غاي تشابمان) بأنه فلان الفلاني. في حين يشير إلى الأشخاص الذين يرد ذكرهم في نماذج الشخصيات، بلفظ «هو» أو «هي». وهذا لن يكون للمؤلف فيه أي غرض شخصي.